المحور الثالث: الخلق العظيم والأداب الرفيع

على السالك طرق العبقرية إذا أراد الوصول أن ينسى نفسه ، ويذكر ربه ويبذل كل جهده ليظهر الإسلام على حقيقته ، ويظهر للعالم ما يجب أن يظهر ، مشرق القلب ، لماح المحيا ، وضاح الأسارير ، قرآنا يمشى بين الناس ، فينشعل به عما سواه ، ويحيا له لأنه نعيم الحب والحياة .

وما أراد الله بعبده خيرا فأوصله إلى هذا النور،إلا وصار العبد خيرا كله لدينه وأمته ونفسه والناس جميعا . وَمَنْ لا يأل جهدا فى طلب المعالى مريدا بها وجه الله تعالى ، رزقه الله قلبا جمع بين الشدة التى لا تشوبها القسوة ، والرفق الذى لا يشوبه الضعف ،والحكمة التى لا يؤتاها إلا ملهم،وحسن البصيرة فيعرف طبائع الناس واختلاف عقولهم فيتعامل معهم على قدرها ، ويقف عند الحق ولو خالف رأيه فلا يزدهيه مدح ،ولا يستثيره نقد، يعرف ما يرفع شأن الإنسان فليتزمه وما يحط من قدره فيجتنبه . يرتفع بالأولى ، وينجو بالثانية . فلا يهتك على أحد سترا ،يشتغل بعيوبه لا بعيوب الآخرين، يعمل بأخلاق المصطفى ﷺ وقد جاءه حرملة بن زيد الأنصارى وكان منافقا فأسلم وحسن إسلامه، ودعا له النبى ﷺ،فقال له حرملة: يا رسول الله إن لى إخوانا منافقين وكنت رأسا فيهم أأدلك عليهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: « من جاءنا استغفرنا له كما استغفرنا لك، ومن أصر على ذلك فالله أولى به ولا نخرق على أحد سترا »(١). وقال عليه الصلاة والسلام فى موضع آخر : « إنى لم أومر أن أنقب على قلوب الناس وأشق بطونهم » (٢) وكذلك المسلم لا يفتح آذانه للجواسيس ينقلون إليه أخبار السوء عن إخوانه لأن رسول الله ﷺ كان يقول لأصحابه : « دعونى أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » بل عليه أن يتودد إليهم وإلى غيرهم فيبدؤهم بالسلام ، ويفسح لهم فى المجلس ، ويناديهم بأحب أسمائهم .

---

(١) أسد الغابة .

(٢) رواه البخارى وأحمد .

لقد كان أسد بن وداعة يخرج من منزله فلا يلقى يهوديا أو نصرانيا إلا سلم عليه وقيل له :ما شأنك تسلم على اليهودى والنصرانى ، فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة :٨٣] .

وعن ابن عباس قال :« من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيا » لأن الله تعالى يقول : ﴿ وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء :٨٦]

قال قتادة:«فحيوا بأحسن منها،المسلمين أو ردوها ، يعنى لأهل الذمة » (١) .

وقد كان ليهودى اسمه « خيرنجدة » دنانير على رسول الله ﷺ فتقاضاه ، فقال : « ما عندى ما أعطيك » قال : إذن لا أفارقك حتى تعطينى ، فجلس معه فلامه فقال النبى ﷺ : « منعنى ربى أن أظلم معاهدا » فلما ارتحل النهار أسلم اليهودى ، وجعل نصف ماله فى سبيل الله (٢) .

اعلم ـ تولى الله رشدك ـ أن لا نجاح إلا لسليم الصدر المحب فى الله ، ولا شيء غير الله . فقد يسيء المرء إلى غيره فى ساعة الغضب فلا يعاديه ، ولا يخاشنه ولا يقاطعه ،ولكن يبصره ويتعهده بالموعظة الحسنة ،والرفق واللين اللذان يدفعان مالا تدفع الشدة والغلظة والخشونة . ويقول النبى ﷺ :« إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الرأس لما فى الجسد » (٣) ولئن كان من أقصى متاعب الحيلة الدنيوية محاولتك أن تحمل من تُحِبَ على ما تحب فلماذا لا تترك من يُحب على ما هو عليه احتراما لمشاعره وقناعاته ، فتغضب وتسامح مرة ، وتعتب فى رفق ومودة مرة . ولا يضرك من اعوج إذا استقمت. بهذا تغمرك الراحة،وتتذوق طعم السعادة ،وأحسن من قال :

إذا أنت لم تشرب مرارا من القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
إذا كنت فى كل الأمر معاتبا صديقك لم تلق الذى تعاتبه

(١) شهيد المحراب .
(٢) أخرجه الحاكم عن على .
(٣) أخرج مسلم معناه ورواه ابن كثير .

وهل هناك خلق أكرم على الله من رسول الله ﷺ ؟ ومع ذلك خاطبه بقوله: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] ،وقال له أيضا : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأنعام: ٥٤] فكان إذا أقبل فقراء الصحابة ـ مثل بلال وصهيب وعمار وغيرهم من أهل الصفة - بسط رسول الله لهم رداءهُ وقال:« مرحبا بمن أوصانى بهم ربى خيرا » (١) .

فمن ثبت يقينه فقد أشرق هذا المعنى بين جوانحه،ولن نصل إلى هذا المستوى إلا إذا عالجنا أنفسنا وروضناها حتى يصبح اليقين فيها يقينا لا خطرات تروح وتجىء ، وتدور مع أحداث الحياة حيث دارت .

المسلم طيب القلب ، حسن الظن والمعاملة لأنه يعرف أن الإسلام يريد للنفوس رقيا فى عالم المعاشرة الطيبة بإرجاعها إلى الظن الحسن ، وحمل كلام الناس على المحمل الحسن الذى لا يسىء حتى تظل السماحة طابع المعاملة الرقيقة الراقية بالحياء . فلا يصلح حال المجتمع إلا إذا أحسن أبناؤه الظن بعضهم ببعض يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا تظنن بكلمة خرجت من فى أخيك شرا ، وأن تجد لها فى الخير مجالا » .

فالمحسن الظن يلتمس لإخوته الأعذار ،والسيئ الظن قاس قلبه ، وقساوة القلب أسوأ ما يبتلى به العبد ، يقول مالك بن دينار : « ما ضرب الله عبدا بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم » (٢) .

قد يخطئ المسلم فى حياته ، وليس العيب فى الخطأ ، وإنما العيب فى الإصرار عليه أو ادعاء الكمال ونسيان الاستغفار ، فالكمال لله وحده ، ولا ينبغى

(١) تفسير نفس الآية ابن كثير .
(٢) شهيد المحراب .

للمؤمن أن ينسى الله فى هذه اللحظات ـ لحظات الزلل ـ ومن أراد الله به خيراً جعل له واعظا من نفسه [١] والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

حكى القرطبى عن سعيد بن المسيب ، قال : شهدت عثمان وعليا وكان بينهما نزغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا ، ثم لم يبرحا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه [٢] .

وإليك صورة أخرى تعطيك فكرة واضحة عن تقدير الأخ لأخيه :

جاء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن إلى أبى بكر فقالا :

« يا خليفة رسول الله عندنا أرض سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها فأجابهما أبو بكر وكتب لهما وأشهد القوم ، وعمر ليس فيهم فانطلقا إلى عمر ليشهداه فتناول عمر الكتاب فتفل فيه ومحاه فتذمرا وقالا له قولة سيئة، فقال :« إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أعز الإسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما » .

فأقبلا على أبى بكر وهما يتذمران فقالا : ما ندرى والله أنت الخليفة أم عمر؟ قال : « بل هو لو أراد » فجاء عمر وهو مغضب حتى وقف على أبى بكر فقال : « أخبرنى عن هذا الذى أقطعتهما ؟ أأرض لك خاصة ؟ أم للمسلمين عامة؟ قال أبو بكر : « للمسلمين عامة » ، قال عمر : « فما الذى حملك على أن تخص بها هذين؟ » .

قال أبو بكر : استشرت الذين حولى فأشاروا على بذلك وقد قلت لك : إنك أقوى على ذلك منى فغلبتنى [٣] .

إنها غضبة فى الحق لا ضغن ولا شحناء ،ورغبة فى إرجاع أبى بكر عن

---

(١) حديث نبوى .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٢١ .

(٣) الاصابة ٣ / ٥٦٠ .

خطئه .

وإنه لنظر حكيم فى تقدير الرجال للرجال فى غير ما غضب ولا اعتداد بمكانة ولا منافسة أحد فيما آتاه الله من فضله .

« إن الصحابة اشتركوا فى الصحبة ثم تباينوا فى الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل ،فهم متفاضلون مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليها » (١) .

ولما سمع على بن أبى طالب رضي الله عنه وكان يومئذ أميرا للمؤمنين قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « إنى أكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم ، كان أصوب فى القول وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم : « اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به » (٢) .

مع العلم أن أعداءه سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته .

هكذا يجب على المسلم أن يكون: سويا فى السر والعلن، فى الحرب والسلم، أمام الله فى دخيلته وأمام الناس فى علانيته، فلا يصدر عن هوى، ولا يتصرف مدفوعا بمؤثرات ذاتية، ولكنه يفعل ما يفعل ابتغاء مرضاة الله تعالى، وقصدا لمنفعة محققة دنيوية كانت أم أخروية، مفضلا فى تعامله مع الآخرين اللين خلقا لا تخلقا، والأناة طبعا لا تطبعا ، والحلم زينة لا تزينا لا تنقصه الجرأة فى موطن الحق ولا الحزم فى الرد إذا ما اقتضاه المقام ، والحلم سيد الأخلاق .

وهكذا تجرى أمور المسلمين جميعا الصغير منها والكبير فى يسر واستقامة وبساطة لا تتعقد معها الأوضاع على هدى تعاليم القرآن الكريم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وعلى هدى توجيه الله سبحانه: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

(١) تفسير القرطبى ص ١٠٧٢ نقلا عن شهيد المحراب ص ١٢٧ .
(٢) عبقرية الإ مام على العقاد ص ٨٣ .

وإرشاده لنبيه : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الحجر :٨٨] .

قال عاصم بن المطلق :دخلت المدينة فرأيت الحسن بن على ﷺ فأعجبنى سمته ، وحسن روائه ، فأثار منى الحسد ما كان يجنه صدرى لأبيه من البغض فقلت: أنت ابن أبى طالب ؟ قال : نعم ، فبالغت فى شتمه وشتم أبيه ،فنظر إلى نظرة عاطف رؤوف ثم قال : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠١] ثم قال : خفض عليك ، استعن الله لى ولك ، إنك لو استعنتنا أعناك ، ولو استرفدتنا أرفدناك، ولو استرشدتنا أرشدناك فتوسم فى الندم على ما فرط منى فقال : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف: ٩٢] حياك الله وبياك ، وعافاك وآداك ، انْبَسِطْ إلينا فى حوائجك وما يعرض لك تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله .

قال عاصم : فضاقت على الأرض بما رحبت ، ووددت أنها ساخت بى ثم تسللت منه لواذا،وما على وجه الأرض أحب إلى منه ومن أبيه . إنها دقة فى النظر، وذكاء الفطرة ، ومراقبة الله فى كل شىء ، ومراقبته تعالى سر الهدى ، ومنار الخير ، ولب العبادة .

ومعلوم أن عاطفة المسلم من أخيه المسلم يتضح جلالها وعمقها فى مواقف الخطر والشدة ، لا فى ساعات السلم والعافية ، فى العافية كل الناس أبطال وشجعان وإخوان ، يقولون من الكلام أطيبه ، وبعضهم يلبس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من العسل ، يقولون ما يذهب بالشم الرواسى فإذا جاءت الفتن والمحن ، انفضت الأغلبية الساحقة من الأبطال والشجعان والإخوان ، وبعضهم صارت قلوبهم قلوب الذئاب ، وتركوا الأقلية المحتسبة تعانى ما تعانى فى سبيل الله ، وما عنده خير من كل شىء فى هذا الوجود .

المؤمن إذا يقظ متحفز ، يبادر إلى اجتثاث أصول الشر إذا ما ذر قرنه قبل أن يستفحل ويترسخ ويعطى المثل من نفسه فلا ترقى إليه شبهة ولا تلحق به ظنون ،

فيعيش وقور المظهر، نظيف المخبر، حسن القول والعمل لسان حاله ينشد :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثـــرت منه لدى الجـــرائم
فما النـاس إلا واحـد من ثلاثـــة شـــريف ومشـروف ومثـل مقـاوم
فأما الـذى دونى إن قال صنت عن إجـابتـه عرضـــى وإن لام لائـــم
وأما الـذى مثلى فإن زل أو هفـــا تفضـلت إن الفـضل بالحـلم حاكم [1]

وقال المقنع العبدى :

وإن الـــذى بينى وبين بنـــى أبـــى وبين بنـــى عمـــــى لمختلـف جدا
فإن أكلوا لحمى وفرت لحـــومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجـدا
وإن ضيعوا عيبى حفظت عيوبهم وإن هَوَوْا غيى هَوَيْتَ لهـــم رشدا
وإن زجـروا طيرا بنحـــس تمر بى زجـــرت لهـم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القـــديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالى إن تتابع لـــى غنى وإن قـــل مالـــى لم أكلفهـــم رفدا
وإنى لعبـــد الضيف ما دام نازلا ما شيمـــــة لى غيـــرها تشبه العبدا

وحسب كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكف عن التعرض بأية إساءة أو تجريح تصريحا أو تلميحا لأى مسلم ، بل عليه ذكر محاسنه ، والإغضاء عن مساوئه حتى تتألف القلوب ويجتمع الشمل ، فالإسلام دين الوحدة والتوحيد ، ودين الروح والريحان لا دين النكد والحرمان، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « إن رسول الله ﷺ كان ألين الناس وأكرم الناس ، وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان ضاحكا باسما » والمعنى واضح فى التبسط وأنس المجلس ، وفسحة الصدر بعيدا عن تقطيب الوجه العبوس .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال : قال رسول الله ﷺ :« رأس العقل بعد

(١) الشعر لمحمود الوراق .

الإيمان بالله التودد للناس » (١) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى قاص: «يا سعد بنى أهيب إن الله إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما لله عندك » (٢) وقال رجل لأحد الولاة : « فتحبب إلى الله بحسن البشر ولين الجانب ، فإن حب عباد الله موصول بحب الله ، وبغضهم موصول ببغض الله لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورقباؤه على من عاج عن سبيله » (٣) .

والعرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقى بالبشر من حقوق القرى ، ومن تمام الإكرام بالضيف وغيره، وقالوا: «من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المواكلة » .

وصدق الشاعر حين قال :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته أحدثه إن الحديث من القرى

وأنشدوا لكثير عزة :

وفى الحلم والإسلام للمرء وازع وفى ترك طاعات الفؤاد المتيم

بصائر رشد للفتى مستبينة وأخلاق صدق علمها بالتعلم

وقال آخر :

وإنى لأستبقى إذا العسر مسنى بشاشة الوجه حين تبلى المنافع

ولنا فى رسول الله ﷺ القدوة الحسنة ، من ذلك الأحاديث الآتية :

عن أبى ذر رفعه قال النبى ﷺ : « لا يحقرن أحدكم شيئا من المعروف ، فإن لم يجد ، فليلق أخاه بوجه طلق » (٤) .

وعن المقدام رفعه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الرجل أخاه فليخبره

(١-٣) البيان والتبيين .

(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن ٢/ ٥ .

أنه يحبه » (١) .

وعن معاذ بن جبل أنه قال: كان آخر ما أوصانى به النبى ﷺ حين وضعت رجلى فى الغرز أن قال :« يا معاذ أحسن خلقك للناس » (٢) .

وروى أنس أنه لما قدم النبى ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا : يا رسول الله ما رأينا قوما أبذل من كثير ، ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة ، أشركونا فى المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبى ﷺ : « لا ما دعوتم الله لهم ، وأثنيتم عليهم » (٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ فلما رآه قال :« بئس أخو العشيرة أنت بئس ابن العشيرة» فلما جلس تطلق وجهه وانبسط إليه،فلما انطلق قلت : يا رسول الله ، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه فقال :« يا عائشة متى عهدتنى فحاشا ؟ إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره » وفى رواية : « اتقاء فحشه»(٤).

وعن سهل بن سعد رفعه أن النبى ﷺ قال : «المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » (٥) .

وهذه الأحاديث وغيرها ميزان للخيرية فى هذه الأمة ، إنها القدرة على الألفة مع أهل الخير ، أى أدب يعلمنا هذا الدين ؟ وأى وفاء ؟

وروى أبو هريرة : مَرُّوا على رسول الله ﷺ بجنازة فأثنوا عليها خيرا ، فقال وجبت ،ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال : وجبت ، ثم قال : « إن بعضكم لبعض شهداء » (٦) .

---

(١) قال الترمذى حديث حسن صحيح غريب كذا فى تخريج السنن ٧/ ٢١ .
(٢) الموطأ .
(٣) لأبى داود والترمذى بلفظه والنسائى كذا فى تخريج السنن ١٧٩ .
(٤) للستة إلا النسائى .
(٥) لأحمد فى الكبير وإسناده جيد كذا فى مجمع الزوائد ١٠/ ٢٧٣ .
(٦) لأبى داود والنسائى انظر : تخريج السنن ٤/ ٣٤٦ .

وعن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يموت فشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون إلا خيرا قال الله : قد قبلت علمكم فيه ، وغفرت له ما لا تعلمون » (١) .

هذا يدل على أن رتبة الشهادة على الخلق مستمرة فى هذه الأمة ، والأصل فى الشاهد أن يكون عدلا ، فشهادة العدول مما يستأنس به فى الحكم على رجل أو جماعة .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأخلاق نفسك فاجعل

وقد وعد الله تعالى أن يجعل فى قلوب عباده المؤمنين مودة للصالحين فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم :٩٦] فبحسن أخلاق المرء يرى ثمرة عمله فى الدنيا ، وهى بشرى له ، فمن الثمر العاجل الذى هو بشارة القبول محبة الخلق . فالله عز وجل إذا أحب عبدا أعلم جبريل فينادى فى السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ثم يوضع له القبول فى الأرض (٢) فظهور الثمرات المفيدة شرعا فى الدنيا علامة على القبول فى الآخرة كهداية المدعوين ، والفتح والنصر واستجابة الدعاء .

فللمسلم ثمرات عاجلة فى الدنيا ، وله ثواب حسن فى الآخرة بقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل : ٩٧] وقوله جل وعلا فى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل:١٢٢] ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

ترى بعض الناس قد جعل الله لهم فى قلوب البشر ودا، خذ مثلا على ذلك حسن البنا رحمه الله لا تجد أحدا إلا ويثنى عليه حتى أعداؤه فهذا يطمئن قلوبنا إلى أن أمثال هؤلاء كالبخارى وابن حجر العسقلانى ، وابن القيم الجوزية إذا سار

(١) رواه أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه .
(٢) أخرجه مسلم ومالك فى الموطأ .

الإنسان على أثرهم مقتديا بهداهم أن يؤتيه الله أجره فى الدنيا قبل الآخرة .

قال الشيخ القشيرى فى رسالته عن عمر بن عثمان المكى يقول : ما رأيت أحدا من المتعبدين فى كثرة من لقيت بمكة ـ حرسها الله تعالى ـ وغيرها ولا أحدا ممن قدم علينا فى المواسم أشد اجتهادا ولا أدوم على العبادة من المزنى رحمه الله تعالى ولا رأيت أحدا أشد تعظيما لأوامر الله تعالى منه ، وما رأيت أحدا أشد تضييقا على نفسه وتوسعة على الناس منه (١) .

وقال الجنيد: «لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شىء ، وكالمطر يسقى ما يحب وما لا يحب » .

وقال الشهيد حسن البنا لأتباعه :« كونوا كالشجر يضربه الناس بالحجر فيلقى إليهم بأطيب الثمر » .

وقال القشيرى : وكان أبو تراب النخعى إذا رأى من أصحابه ما يكره زاد فى اجتهاده وجدد توبته ، ويقول : «بذنبى دُفعُوا إلى ما دُفعُوا إليه لأن الله عز وجل يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] » (٢) .

وقال رويم : من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه فى الأحكام ، ويضيق على نفسه فيها ، فإن التوسيع عليهم اتباع العلم ، والتضييق على نفسه من حكم الورع لا سيما أن مبدأ التيسير ورفع الحرج عن العباد من أسس التشريع الإسلامى وكان الإمام الشافعى رحمه الله يقول :« وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلى شىء منه » فانظر كيف كان منزه القلب عن الالتفات إلى شخصه أو إلى علمه لعلمه أن آفة العلم ابتغاء الشهرة والمن على العباد .ويقول أيضا : « وما كلمت أحدا إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ، ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كلمت أحدا قط وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه » (٣) .

(١-٢) مذكرات فى منازل الصديقين والربانيين ص٥١٦ .

(٣) المرجع السابق ص٥١٨ .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: « ما صليت صلاة منذ أربعين سنة، إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى » .فانظر إلى إنصاف الداعى،وإلى درجة المدعو له ، وقس به الأقران والأمثال من العلماء فى هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء ، لكثرة دعائه له قال له ابنه: أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟فقال أحمد: « يا بنى كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فانظر هل لهذين من خلف ». وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول: « ما مس أحد بيده محبرة إلا والشافعى رحمه الله فى عنقه منه » (١) .

وسئل الشافعى رحمه الله عن مسألة فسكت فقيل له:ألا تجيب رحمك الله ؟ فقال: حتى أدرى هل الفضل فى سكوتى أم فى جوابى . فانظر إلى مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء،وأعصاها عند الضبط والقهر ، وبجواب الشافعى هذا يستبين لك أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب .

إن أعظم خلق يتصف به السالك طريق العبقرية ويتحلى به أن لا يحمل لأحد حقدا ولا حسدا لأن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (٢) وأن يتمنى الخير لكل من يعرف ومن لا يعرف من الناس عملا بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر : ١٠] فهذا عبد الله بن عباس ﷺ يقول عن نفسه : «إنى لآتى على الآية من كتاب الله فأود لو أن الناس جميعا علموا مثل الذى أعلم وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يقضى بالعدل،ويحكم بالقسط فأفرح به، وأدعو له ، ومالى عنده قضية ، وإنى لأسمع بالغيث يصيب للمسلمين أرضا فأفرح به وما لى بتلك الأرض سائمة » (٣) .

إنه السبق إلى كل كمال،والمسارعة إلى كل خير،والقيام بالواجب حيث أقيم صاحبه ، والحياة المتكاملة فى الشؤون الحياتية كلها،فللعمل فيها نصيب ،

(١) إحياء علوم الدين .
(٢) حديث نبوى صحيح .
(٣) رجال حول الرسول .

وللجهاد فيها نصيب، والخدمة العامة فيها نصيب ، إنها الوراثة الكاملة لرسول الله ﷺ الذى كان«يعلف البعير ،ويقم البيت،ويخصف النعل،ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه إذا أعيا ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغنى والفقير، ويسلم مبتدئاً ولا يحقر ما دعى إليه ولو إلى حشف التمر ، وكان هين المؤنة، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساما غير ضحك ، محزونا من غير عبوسة، متواضعا من غير مذلة ،جوادا من غير إسراف ، رقيق القلب رحيما بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولم يمد يده إلى طمع »(١) .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ، ولم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرا ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما وكان من صفته الجود والكرم على ما لا يقادر قدره ؟ كان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر قال جابر بن عبد الله : « ما سئل شيئا قط فقال : لا »(٢) .

وكان ﷺ أشد الناس حياء وإغضاء ، قال أبو سعيد الخدرى :« كان أشد حياء من العذراء فى خدرها،وإذا كره شيئا عرف فى وجهه »(٣) وكان لا يثبت نظره فى وجه أحد ، خافض الطرف ،نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره عن الملاحظة ، لا يشافه أحدا بما يكره حياء ولا يسمى رجلا بلغ عنه شيء يكرهه ، بل يقول : ما بال أقوام يصنعون كذا ، كان أحق الناس بقول الفرزدق :

يغضى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أشد الناس تواضعا ، وأبعدهم عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، ويقول للذى دخل عليه وهابه :« هون على نفسك فلستُ جبارا ولا ملكا وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » .

---

(١) رواه أبو سعيد الخدرى انظر : مذكرات فى منازل الصديقين والربانيين ص٢٢١ .
(٢) صحيح البخارى ١/ ٥٠٢ .
(٣) صحيح مسلم ٢/ ٢٥٢ وصحيح البخارى ١/ ٤٠٧ .

وكان يَعُودُ المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبيد ، ويجلس فى أصحابه كأحدهم .

وكان أوفى الناس بالعهود ، وأوصلهم للرحم وأعظم شفقة ورحمة ورأفة بالناس ، وأحسن الناس عشرة وأدبا ، وأبسط الناس خلقا ، وأبعد الناس من سوء الأخلاق لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا لعانا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ،وكان لا يدع أحدا يمشى خلفه ،وكان لا يترفع على عبيده وإمائه فى مأكل ولا ملبس، ويخدم مع خدمه ، ولم يقل لخادمه أف قط ولم يعاتبه على فعل شىء أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ويشهد جنائزهم ويكره أن يتميز على أصحابه فى سفر أو حضر .

وكان ﷺ متواصل الأحزان،دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة طويل السكوت ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير، ليس بالجافى ولا بالمهيمن، يعظم النعمة وإن دقت ، ولا يذم شيئا ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشىء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ـ سماحة ـ وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام[1] .

وكان ﷺ يخزن لسانه إلا عما يعنيه ،يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ،ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ،ويسأل الناس عما فى الناس،ويحسن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه،معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر على الحق ولا يجاوزه إلى غيره ، الذين يلونه من الناس خيارهم،وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

كان ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يميز لنفسه مكانا ، إذا انتهى

(١) الرحيق المختوم ص٤٤٦ .

إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه،من جالسه أو قاومه لحاجته صابره حتى يكون هو المنصرف عنه،من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تخشى فيه فلتات اللسان ، يتعاطفون بالتقوى، ويوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب، قد ترك ﷺ نفسه من ثلاث : الرياء،والإكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته،ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير،وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ،من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ،حديثهم حديث أولهم ،يضحك مما يضحكون منه ،ويعجب مما يعجبون منه،ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق ويقول :« إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فارفدوه،ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ »[1] يعرض عمن تكلم من غير جميل وكان ضحك أصحابه التبسم توقيرا له واقتداء به[2].

وعلى الجملة فقد كان النبى ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير ، أدبه ربه فأحسن تأديبه حتى خاطبه مثنيا عليه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس ، وحببه إلى القلوب ، وصيره قائدا تهوى إليه الأفئدة ، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء حتى دخلوا فى دين الله أفواجا واستضاء بنور ربه فأضاء قلوب العباد بالخلق العظيم حتى صار خلقه القرآن .

ما هى أخلاق القرآن ؟

إنها كل ما يقرب إلى الله تعالى من قول أو عمل أو تقرير . فلا تكن فظا غليظ القلب ، ولا متكبرا عنيدا ، فإن ابن آدم من طبعه الكبر لولا أن الله تعالى قهره بثلاث : الفقر والمرض والموت ، لكان حيوانا مفترسا .

---

(١) الشفا للقاضى عياض ١/ ١٢١ ـ ١٢٨ وانظر أيضا:شمائل الترمذى .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٠٧ .

قد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « لولا أن الله تعالي أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشيء : الفقر والمرض والموت » (١) .

وقد يتغير خلق المرء بالفقر أنفة من ذل الاستكانة ، أو أسفا على فائت الغنى، وقد يتغير بالهم الذى يشغل القلب ، وبالمرض الذى يتغير به الطبع فلا تبقى الأخلاق على اعتدال ، ولا يقدر معها على احتمال وصدق من قال :

لا تحقرن الفقير علك أن تركع يوما والدهر قد رَفَعَهْ

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غيرُ مَنْ جَمَعَهْ

وقد يعلو السن ويفاجئ الهرم لتأثيره فى آلة الجسد ، فيتغير طبع صاحبه ويسوء خلقه ، فإذا ساء خلقه هان ، ولم يبق لفضائله فى النفوس موضع ولا فى القلوب موقع ، وصار كما قال حسان بن الغدير :

قالت أمامة يوم برقة واسط يا بن الغدير لقد جعلت تغير

أصبحت بعد شبابك الماضى الذى ذهبت بشاشته وغصنك أخضر

شيخا دعامتك العصا ومشيعا لا تبتغى خبرا ولا تستخبر

ومن جفا طبعه ساء خلقه وظهرت سمات الشر فى وجهه :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأخلاق نفسك فاجعل

فعليك بسمة الخير فى كل حال ، وكفى بالحياء خيراً أن يكون على الخير دليلاً ومن كسا الحياء وجهه لم ير الناس عيبه ، فالوجوه مرايا تنبئ بأسرار القلوب إن الله تعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٠] فالحياء حياة الوجه كما أن الماء حياة الغرس .

قال المنذر بن المنذر لابنه النعمان يوصيه : « اعلم أن جماع الخير كله الحياء فعليك به . فتواضع فى نفسك . . . واعلم أن السكوت فى الأمر الذى يغنيك

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٤٩٥ وفى رواية وإنه مع ذلك الوثاب .

خير من الكلام فإذا اضطررت إليه فتحر الصدق والإيجاز تسلم إن شاء الله تعالى » (١) .

وصدق صالح بن عبد القدوس حين قال :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه

حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

ومن لم يستح دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء ، ويأتى ما يهوى ، فلا يردعه عنه رادع ، لأن الحياء حكم على الأفعال ، وبالحياء يكره المرء الدنايا أن ترى منه ، لذلك قال النبى ﷺ : « البر ما اطمأنت إليه نفسك ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

الحياء ثلاثة أوجه: حياء من الله ، ومن الناس ومن النفس ذاتها فأما الحياء من الله فبامتثال أوامره واجتناب نواهيه وأما الحياء من الناس يكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالمنكر وصدق القائل :

إذا أنت لم تصن عرضا ولم تخش خالقا

وتَسْتَحْىَ مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما الحياء من النفس فالعفة وصيانة الخلوات،فلا تعمل فى السر عملا تستحيى منه فى العلانية ، وكن كما قال الشاعر :

وإنى ليثنينى عن الجهل والخنا وعن شتم ذى القربى خلائق أربع

حياء وإسلام وتقوى وإننى كريم ومثلى من يضر وينفع

ولكى تصون عقلك بالحلم،ومروءتك بالعفاف عليك بغرس أشجار الحلم لتجنى ثمار السلم، فما وقى الأعراض كالصفح والإعراض،وصدق من قال :

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعابا

(١) البيان والتبيين ج ١ .

واصفح عن سب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا

ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فاضبط نفسك ـ ألهمك الله رشدك ـ وكن حليما فإن الحلم سيد الأخلاق . وفيه قال على بن أبى طالب رضي الله عنه : « أول عوض الْحَليم عن حِلمه أن الناس أنصاره » (١) وترفعْ عن السباب استهانة بالمسىء ، وصُنّ نفسك عن مجاراته والتحلى بصورته وارع ذمته وحرمته ، فإن من سكت عن جهل الجاهل فقد أوسعه جوابا وأوجعه عقابا وصدق من قال :

وللكف عن شتم اللئيم تكرما أضر له من شتمه حين يشتم

وهل يعرف الحليم إلا ساعة الغضب ، ولا الكريم إلا ساعة العسرة ، ولا الشجاع إلا ساعة الحرب ، ومن ضيع الحلم انقاد لغضبه وضل عن الصواب ، وصار بليد الرأى مغرورا بنفسه ، وحل به من البلاء مالا يطيق .

فإذا جالست الجهال فانصت لهم ،وإن جالست العلماء فانصت لهم ، فإن فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم ، وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم (٢) .

فرحم الله عبدا كف ثورته بحزمه ، وأطفأ ثائرته بحلمه ، ووكل من استحق المقابلة إلى غيره ، ولن يعدم المسىء مكافئا ، والحليم مجازيا .

وأَكْرِمْ بمن إذا جهل ترك للصلح موضعا ، وإذا قدر ذكر الله فجعل العفو شكرا ، ذكر قدرة الله فلم يستعمل قدرة نفسه فى ظلم العباد ، وصدق الله تعالى القائل : ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا** ﴾ [الكهف: ٢٤] قال عكرمة : يعنى اذكر ربك إذا غضبت ، والقائل سبحانه : ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى : ٤٠] يعنى إذا أعطاك الله ما تحب من الظفر والنصر فأعطه ما يحب من العفو فليس من عادة الكرام سرعة الانتقام والله تعالى يقول : ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ويقول القائل:

(١ ، ٢) أدب الدنيا والدين ص١٨٤ .

وفى الحلم والإسلام للمرء وازع وفى ترك طاعات الفؤاد المتيم

بصائر رشد للفتى مستبينة وأخلاق صدق علمها بالتعلم

وعليك بالصدق تكن من أهله فإن الصادق مصون جليل ،والصدق أول السعادة وإياك الكذب فإن الكاذب مهان ذليل ، والكذاب لص ماهر لأنه يسرق العقل إذا سرق السارق الأموال . وصدق من قال :

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا إن الكذوب يشين حرا يصحب

يلقاك يقسم أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولا تألف الكذب فيصير لك عادة،ونفسك إليه منقادة،فإن العادة طبع ثان ، ومن استرضع الكذب عسر عليه فطامه ،وما كذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده ،وما صدق إلا لعلو إيمانه وقوة يقينه ،فلا خير فى الكذب وإن جر نفعا أو دفع ضررا ، وما أجمل الصدق المُلام فلأن يضعك الصدق أحب من أن يرفعك الكذب (١) لأن الصدق منجى ،فيه صلاح كل دين ، وصلاح كل دنيا ، والكذب مردى وسبب كل فرقة ، وأصل كل فساد ،وإن كان لابد من الكذب ففى المعاريض ما يغنى ، وفى التلميح ما يكفى ، وإن كان لابد من الصدق ففى الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والرذيلة كالغيبة والنميمة والسعاية ، وصدق الشاعر عندما قال :

عود لسانك قول الصدق تحظ به إن اللسان لما عودت معتاد

مُوَكَّل بِتَقَاضى ما سنَنْتَ له فى الخير والشر فانظر كيف ترتاد

وصدق من قال : من خاف الكذب أقل من المواعيد ، وقال : اثنان لا يسلمان من الكذب : كثرة المواعيد وشدة الاعتذار .

وإياك والغيبة والنميمة فإنهما يزرعان الضغينة ، واعلم أن المغتاب والنمام غير

(١) يقول على كرم الله وجهه : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب من حيث ينفعك .

معذورين وإن قالا حقا لأنهما يهتكان بغيبتهما سترا هما أولى بصيانته ، ويُظهران من الفساد ما كان خافيا عن الأنظار ، فيشيعان الفواحش فى المجتمع ،ويشجعان على المجاهرة بالسوء الذى كان بالأمس خافيا والله لا يحب الجهر بالسوء . وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] .

والسلامة من العذاب فى أن تستر من العيوب ما ستره علام الغيوب ، وتمحض المذنب النصيحة بدل اغتيابه .

قال رجل لابن سيرين رحمه الله : « إنى اغتبتك فاجعلنى فى حل . فقال : ما أحب أن أحل لك ما يحرم الله عليك » (١) .

والسعاية بين الناس مذمومة على كل حال ، فإن كان الساعى فى سعايته صادقا كان فى صدقه آثما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة ، وإما أن يكون كاذبا فيظفر بالشر كله ، ومن كف عن الشر كف الشر عنه .

قالت أعرابية توصى ابنها : « إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن ، ولا تجعل نفسك غرضا للرماة ، فإن الهدف إذا رمى لم يلبث أن ينثلم ، ومثل لنفسك مثالا فما استحسنته من غيرك فاعمل به ، وما كرهته منه فدعه واجتنبه ، ومن كانت الرياح مودته كان كالريح تصرفها، وإذا هززت فهز كريما فإن الكريم يهتز لهزتك، وإياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، وإياك والغدر فإنه أقبح ما تعومل به وعليك بالوفاء ففيه النماء ، وكن بمالك جوادا ، وبدينك شحيحا » (٢) .

إياك والحسد فإن الله تعالى أمر بالاستعاذة من شره فقال سبحانه : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ٥] فالنزاهة عنه كرم ، والسلامة منه مغنم،فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر ؛ لأن الحسود فى هم لازم وقلب هائم ونفس دائم

(١) أدب الدنيا والدين ص١٩٦ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ .

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف :١٧٦] .

ومن حسد على فضائل قد منحها الله من شاء فقد أسخط الله عز وجل فى قضائه ، وحسد على ما منح من عطائه ، فهو لا يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه على الناس أهلا .

فعليك بالمنافسة فإنها داعية إلى اكتساب الفضائل والاقتداء بالأفاضل ، واعلم أن من كثر فضله كثر حساده لأن ظهور الفضل يثير الحسد ، وتوالى النعم يضاعف الكمد ،ولذلك قال النبى ﷺ : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود » والحاسد على النعمة عقابه زوالها .

فارجع إلى الله تعالى ، وحكم عقلك فإن ذا العقل يجل نفسه من دناءة الحسد،وزن الكلام إذا نطقت فاللسان عنوان الإنسان،يترجم عن مجهوله ،ويبرهن عن محصوله ، فعليك بتقويمه وتهذيبه ، والكلام يعبر عن مستودعات الضمائر ، ويخبر عن مكنونات السرائر ، ولا يمكن استرجاع بوادره ولا شوارده ، والعاقل من يحترز من زلله بالإقلاع منه ، أو الإمساك عنه ففيه السلامة ، فإن أنت أقللت منه فلا تتكلم إلا لداع يدعو إلى الكلام إما فى اجتلاب نفع أو دفع ضرر ، ثم ائت به فى موضعه ، وتوخى به إصابة فرصته ، واقتصر منه على قدر الحاجة ، وتخير اللفظ الذى تتكلم به . ورحم الله القائل [١] :

وقد كنت مجرور اللسان ومفحما فأصبحت أدرى اليوم كيف أقول

والقائل :

يا أيها المتحلى غير شيمتـــــه ومن سجيتــه الإكثـار والملق

اعمد إلى القصد فيما أنت راكبه إن التخلق يأتى دونه الخلق [٢]

والقائل :

فما المال والأخلاق إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود

(١) القائل هو الفقمى .

(٢) القائل هو سالم بن وابصة .

إنى لأغنى الناس عن متكلف يرى الناس ضلالا وليس بمهتد [١]

فأوجز ـ تولى الله رشدك ـ واقتصر على حاجتك فإنه يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله . وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال : إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به [٢] وقيل: «أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه فى ظاهر لفظه، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله . فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . . . وأصحبه الله من التوفيق ، ومنحه من التأييد ما لا يمنح معه من تعظيمه صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمه معه عقول الجهلة » [٣] .

وصدق من قال :

وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدى عيوب ذى العيوب المنطق

والذى قال :

والصمت أجمل بالفتى من منطق فى غير حينه

وقال آخر :

فإن لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

قال الجاحظ : للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية ، ما فضل على الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر [٤] .

فالإكثار يمل السامع ويكل الخاطر وإن كان صوابا، ولا يسلم صاحبه من

(١) القائل هو قيس بن الخطيم .
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٠٥ .
(٣) البيان والتبيين ج٢٠ .
(٤) أدب الدنيا والدين ص٢٠٦ .

الإعجاب بنفسه،ومن أعجب بقوله أصيب فى عقله ، وإذا تم عقل المرء نقص كلامه .ومن طال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ،وخير المتكلمين من لا يقل ولا يمل .

روى الجاحظ أن ابن السماك كان يتكلم يوما وجارية له تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه .قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مله من فهمه (١) .

فكن صموتا فى المجالس غير عَىٍّ جديرا حين ينطق بالصواب

واقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك،فإن فضول الكلام يزل القدم ويورث الندم،واعلم أن لضرب الأمثال من الكلام موقع فى الأسماع وتأثير فى القلوب لأن القلوب بها واثقة،والعقول لها موافقة،ولذلك ضرب الله الأمثال فى كتابه العزيز ، وجعلها من دلائل رسله ، وأوضح بها الحجة على خلقه لعلمه سبحانه أنها فى العقول معقولة،وفى القلوب مقبولة، فقال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] .

فربط سبحانه العلم بها بالعالمين من عباده كما ربط خشيته بهم فى قوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر :٢٨] لعلمه سبحانه أن الأمثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ، وأنها مستخرجة من أحوال وأقدار المتمثلين بها ، فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم،وليس لذى الهمة الساقطة إلا مثل مرذول،وتشبيه معلول،فتجنب ـ رعاك الله ـ أمثال العامة والغوغاء فربما أَلِفْت مثلا عاميا أو تشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعك من مخالطة الأرذال فلا تسترسل فى ضربه مثلا فتصير به مثلا . وعليك أن تتأسى بالعلماء والأدباء فى أمثالهم فإن لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم ، فلا تجد لساقط إلا مثلا سقاطا ، وتشبيها مستقبحا(٢) ولا تجد لذى دين وتقوى إلا مثلا صحيح التشبيه،سريع الفهم ، بعيدا عن الوهم،أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا،مناسبا لحال السامع والكل موافق عليه .

(١) البيان والتبيين ج١ .
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢١٢ .

واحذر ـ وأنت تتكلم ـ كثرة المزاح فإنه سباب إلا أن صاحبه يضحك ،وإنما سمى مزاحا لأنه يزيح صاحبه عن الحق ، ويمحق الهيبة ، والإفراط فيه يذهب بهاء الوجه ، ويحرض السفهاء .

وإذا مزحت فلا تقل إلا حقا ، لأن النبى ﷺ يقول : « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا » ولا تخرج بالمزاح إلى حد الخلاعة والفحش ، ولا تسترسل فى ممازحة عدو لك لأنك بذلك تحرضه عليك ، وتفسح له المجال فى الانتقام منك «وإياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب نور الوجه » (١) وَشَاغِلٌ عن النظر فى الأمور المهمة ، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا مقدار ، وليكن بدل الضحك ساعة الأنس والتبسم والبشر ، وكن كما قال القائل :

وإنى لأستبقى إذا العسر مسنى بشاشة وجهى حين تبلى المنافع

وعليك بالفأل الحسن فإن رسول الله ﷺ كان يحبه ، لأن فيه تقوية لعزم وباعث على الجد ، ومعونة على الظفر،ولا تجعل لسوء الظن ولا للتطير إلى نفسك سبيلا ، فقد روى أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس، فأوحى الله تعالى إليه : يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف : ٣٣] ولو قلت : العافية أحب إلى لعوفيت (٢) .

وحكى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم:١٥] فمزق المصحف وأنشد يقول:

أتُوعِدُ كـــل جبار عنيـــــد فهـــا أنا ذاك جبار عنيــد

إذا ما جئـت ربك يوم حشـر فقـل يارب مزقنى الوليـــد

فلم يلبث إلا أياما قتل شر قتلة ، وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده،نعوذ بالله من البغى ومصارعه،والشيطان ومصايده وهو حسبنا وعليه توكلنا(٣).

---

(١) حديث نبوى .

(٢-٣) أدب الدنيا والدين ص٢٣٧ .

وتفاءل حسان بن ثابت للنبى ﷺ بفتح مكة فقال فى كلمته المشهورة يخاطب بذلك مشركى أهل مكة ويتوعدهم :

عدمنا خيلنا إن لـم تروها تثير النقـع موعـدها كداء

تظل جيادنا متمطـرات يلطمهـن بالخمر النسـاء

فلما كان يوم فتح مكة ، أقبل النساء يمسحن وجوه الخيل ، وينفضن الغبار عنها ، فقال قائل لله در حسان إذ يقول (وأنشد الأبيات) وروى قوم أن الناس أمروا بالسير إلى كداء تفاؤلا بهذا البيت ليصح ، فكان الأمر . وتطير قيس المجنون فقال :

قضاها لغيري وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير ليلى ابتلينا

فما مات حتى برص ، ورأى قائلا يقول له : هذا ما تمنيت ، ويقال : إن المؤمل بن أميل لما قال :

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر (١)

نام ذات ليلة صحيحا ، فأصبح مكفوف البصر (٢) .

فإذا تفاءلت وأكرمك الله بنعمه فلا تمنن تستكثر ، فإن المن من لؤم الطبع ، وضيق الصدر ، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « خير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله » (٣) .

وقيل لبعض الحكماء :هل شىء خير من الذهب والفضة ؟ قال : معطيهما دون من ولا أذى .

فعليك بالإحسان إلى الناس تستعبد نفوسهم فما من شىء من أفعال العباد يشبه أفعال الله تعالى كالإحسان إليهم ، وصدق الشاعر البستى حين قال :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(١ ، ٢) العمدة ص٢٥ .

(٣) أدب الدنيا والدين ص٢٣٢ .

ولا تؤذ جارك واصبر على أذاه : « فليس حسن الجوار كف الأذى ، بل الصبر على الأذى » (١) ومن أعان جاره أعانه الله وأجاره .

وللجار حق فاحترز وما خير جار لم يزل لك مؤذيا

فإن آذاك فاصبر فإن الصبر على الملمات من حسن التوفيق وأمارات السعادة، وبه نزل القرآن وجاءت السنة قال الله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾[المدثر:٧] ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل : ١٢٦] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

والصبر صبران : فاللئام أصبر أجساما ، والكرام أصبر نفوسا ، أوما قرأت قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّه ﴾ [يوسف :٨٦] فمن صبر بجسده على الأعمال الشاقة فتلك صفات الحمير والبغال ، ومن ضبط نفسه وصبرها فهو الصابر المحتسب .

والصبر على امتثال أمر الله تعالى ، والانتهاء عما نهى عنه أعلى مراتب الصبر لأن به تخلص الطاعة ، وبخلوص الطاعة يصح الدين ، وتؤدى الفرائض ويستحق الثواب ، وفى هذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] ومن خاف الله عز وجل صبر على طاعته ، ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره ، وصدق أبو العتاهية حين قال :

أراك امرأ ترجو من الله عفوه وأنت على ما لا يحب مقيم

تدل على التقوى وأنت مقصر فيا من يداوى الناس وهو سقيم

والصبر على المصيبة المفاجئة يعقب صاحبه الراحة منها ، ويكسبه المثوبة عنها إن صبر طائعا ، وإلا احتمل هما لازما ، وصبر كارها آثما .

قال على بن أبى طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس : « إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور » (٢) .

(١ ، ٢) أدب الدنيا والدين ص٢١٣ .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « بالصبر يتوقع الفرج ، ومن يدمن قرع باب يلج » (١) ، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « ما أصابتنى مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى أنها لم تكن فى دينى والثانية أنها لم تكن أعظم مما كانت والثالثة أن الله يجازى عليها الجزاء الكبير ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٧] (٢) .

وقال القشيرى: من صبر فى الله على قضاء الله عوضه الله صحبة أوليائه هؤلاء بنو اسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه، فجعل منهم أنبياء، وجعل منهم ملوكا، وآتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين (٣)، من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ونحوها، قال الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

وقال يحيى بن اليمان : الصبر ألا تتمنى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضا بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك .

ومن فضل الصبر وعلو منزلته وصف الله تعالى نفسه به كما فى حديث أبى موسى عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى إنهم ليدعون له ولدا وإنه ليعافيهم ويرزقهم » (٤) .

قال العلماء : الصبر عند الله هو الحلم ، ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى لم يرد فى التنزيل وإنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم . وجاء فى أسمائه الحسنى (الصبور) للمبالغة فى الحلم عمن عصاه (٥) .

بالصبر إذن تنفتح وجوه الآراء ـ وتستدفع مكائد الأعداء، ويبصر المرء رشده ، ويعرف قصده ، فلا تحملن على يومك هَمَّ غدك ، فحسب كل يوم هَمّ (٦) .

(١) أدب الدنيا والدين ص٢١٣ .
(٢-٣) صفوة التفاسير ، الآية ١٥٧ من سورة البقرة .
(٤) أخرجه البخارى .
(٥) الجامع لأحكام القرآن الآية ٤٥ من سورة البقرة .
(٦) الكلام للحسن البصرى رحمه الله .

ومن قل صبره انغلقت وجوه الآراء فى وجهه ، واشتد جزعه ، فصار صريع همومه ،وفريسة غمومه ، ومن طبع الشدائد إذا صادفت حزما وعزما أن يهون وقعها ، ويقل تأثيرها ، وضررها ، قال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان :١٧] .

فليعلم المصاب أن للمصائب آجالا منصرفة،ومددا منقضية ،وأن الدنيا ليس لها حال دائم،ولا لمخلوق فيها بقاء،وللعبد فى كلْ مِحنة منِحة،فإذا أصابتك مصيبة فتسلى بأولى العبر وتأسى بذوى الغير،واعلم أنهم الأكثر عددا، والأسرع مددا ، فسوف تجد للأسى سلوة وللعزاء سلوانا ،وعلى مثل هذا كانت مراثى الشعراء.

قال البحترى :

فلا عجب للأسد إن ظَفَرَتْ بها كِلاب الأعادى من فصيح وأعجم

فحربة وحشى سقت حمزة الردى وموت على من حسام ابن ملجم

وقالت امرأة ترثى زوجها الملك الذى قتل عنها ولم يبن بها :

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالى والرمح والفَرَس

أبكى على فارس فجعت به أرملنى قبل ليلة العرَسِ

وقالت أعرابية ترثى ولدها :

يا فرحة القلب والأحشاء والكبد ياليت أمك لم تحبل ولم تلد

لما رأيتك قد أدرجت فى كفن مطيبا للمنايا آخر الأبد

أيقنت بعدك أنى غير باقية وكيف يبقى ذراع زال من عضد

وخرج عمر بن الخطاب يوما إلى مقبرة الغرقد فسمع أعرابيا يرثى ابنه ويقول:

يا غائبا ما يعد من سفره عاجله موته على صغره

ياقرة العين كنت لى سكنا فى طول ليلى نعم وفى قصره

شـربت كأسا أبوك شـاربهـا لابـد لـه يومـا علـى كبره
أشربهـا والأنـام كلهـم من كان فى بدوه وفى حضره
فالحمد لله لا شـريك لـه الموت فى حكمه وفـى قـدره
قد قسم الموت فى الأنام فـما يقدر خـلق يزيـد فى عـمره

فقال عمر : صدقت يا أعرابى غير أن الله خير لك منه ، فمن بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره .

قال الشاعر :

يا راقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

وقال آخر :

يؤمل أن يعمر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليلة

وقال آخر :

تَوَلَّتْ بهجة الدنيـا فكـل جديدها خلق
وخان النـاس كلهم فمـا أدرى بمـن أثـق
رأيت معـالم الخيرا ت سـدت دونهـا الطرق
فـلا حَسَبٌ ولا أدب ولا ديـن ولا خُلُـقُ

ومن علم أن كل مصيبة إلى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء ، وأن مصائب الإنسان من دلائل فضله ، ومحنه من شواهد نبله .

قال الصنوبرى :

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة عن فضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل إلا من جهة ناقص ، وبلوى عالم إلا على يد جاهل لاستحكام العداوة بينهما وللفرق الشاسع بينهما .

ومن علم غرور الدنيا لا يغتر برخاء ، ولا يطمع فى استواء ، ولا يأمل أن

تبقى على حالة أو تخلو من تقلب واستحالة . فهى كما قال أعرابى :

يعيش الفتى بالفقر يوما وبالغنى وكلا كأن لم يلق حين يزايله

وقال آخر :

ومُشَيَّداً ليسكن داره سكن القبور وداره لم يسكن

ومن عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها، وكان وشيك السلوة، قليل الجزع ، حسن العزاء ، وكان كما قال حرب بن المنذر بن الجارود :

فحسبى من الدنيا كفاف يقيمنى وأثواب كتان أزور بها قبرى

وقال آخر :

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن ريش من جناح لطائر

فما رضى الله الدنيا ثوابا لمؤمن ولا رضى الله عنها عقابا لكافر

ومن راقب لم يجزع ، ومن حاذر لم يهلع ، ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا ومن أسف على ما فات طال حزنه ، ومن فرح بما أوتى كان مغرورا (١) والله تعالى يقول: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ [الحديد : ٢٣] .

قال رجل لداود بن نصير الطائى العابد : أوصنى ، قال : اجعل الدنيا كيوم صمته ، واجعل فطرك كأن قد ، والسلام ، قال: زدنى ، قال: لا يرك الله عندما نهاك عنه ، ولا يفقدك عندما أمرك به ، قال: زدنى قال : ارْضَ باليسير مع سلامة دين كما رضى الله قوم بالكثير مع هلاك دينهم (٢) وروى الجاحظ أن هانئ بن قبيصة أتى حرقة بنت النعمان وهى باكية فقال لها : لعل أحدا آذاك : قالت لا ولكنى رأيت غضارة فى أهلكم (يعنى سعة ونعمة) وقلما امتلأت دار سرورا إلا امتلأت حزنا (٣) فاللهم اجعلنا من الأقلين يارب العالمين .

---

(١) أدب الدنيا والدين .

(٢ ، ٣) البيان والتبيين ج ١ .

واعلم أنه ليس من الصبر أن تكثر الشكوى وتبث الجزع إلا إلى الله تعالى ، والمصيبة فى الصبر أعظم المصائب ، ومن صبر على مصيبة كان انكشافها وشيكا ، والفرج منها قريبا .

قال أبو حاتم :

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطَنَتِ المكاره واطمأنت وأرسلت فى مكانتها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر :

إن الأمور إذا اشتدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتجَجَا
لا تيأسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فَرَجَا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته فضيق السبل يوما ربما انتُهِجَا
كم من فتى قصرت فى الرزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فَلَجَا

وقال ابن القيم رحمه الله : « بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين » تفسيرا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤] أى بالصبر على الشبهات صاروا أئمة يهدون بأمر الله تعالى ، فإياك ومواقف الريبة ، ومجالس الشبهات فإنها التردد بين منزلتى الحمد والذم ، والسلامة والملامة وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ، واشتر ماء وجهك بالقناعة ولا تسأل الناس شيئا فإن :

مَنْ عَفَّ خَفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وَفرت ما فى كيسه فإذا عبثت فأنت ثقيل

وصدق أبو فراس الحمدانى ـ رحمه الله ـ حين قال :

إن الغَنِىَّ هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى المناكب حافى

ما كل فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فبعض شىء كافى

وتعاف لى طمع الحرص فتوتى ومروءتى وقناعتى وعفافى

ومكارمى عدد النجوم ومنزلى مأوى الكرام ومنزل الأضياف

لا أرتضى وَداً إذا هو لم يدم عند الجفاء وقلة الإنصاف

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : " أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب " كان صادقا فى تقواه وإيمانه ، كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه . . . فلم تعرف الدنيا أحدا من الخلفاء أزهد فى لذة دينا أو عطاء دولة منه ، وكان - وهو أمير المؤمنين - يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيدها ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم » ، وقد بلغ من زهده وبلاغة قناعته أن أَبَى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثارا للفقراء ، وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام .

فإذا تعذر عليك صلاح حالك إلا بمال تستعين به على نوائبك فاستقرضه مالا مردودا ، ولا تأخذه صلة وجودا فإن الرسول ﷺ اقترض ثم قضى . فإذا قنعت بما قسم الله لك فلا تجز الأذى بأذى ، وتثبت فإن التثبت نصف العفو ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [الحجرات:٦] ، وإن عاديت أمرأً فاحذره ، واعمل بقول الشاعر الذى قال :

إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وإذا ابتليت بعدو لدود يتربص بك الدوائر ، فالبعد منه حذرا أسلم ، والكف عنه أغنم ،فلا سلامة إلا بالصفح والإعراض ، قد قيل : شرف الكريم الإغضاء عن اللئيم ، وقال لقمان لابنه : يا بنى ، كذب من قال : إن الشر بالشر يطفأ ،

فإن كان صادقا فيلوقد نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى وإنما يطفئ الخيرُ الشرَّ كما يطفئ الماء النار .

فالْبَسْ عدوك فى رفق ودعة لباس ذى إربة للدهر لباس

وكن كما قال عامر الشعبى :

فداويته بالحلم والمرء قادر على سهمه ما دام فى كفه السهم

وَصَاحِب من ينسى معروفه عندك ، ويتذكر حقوقك عليه « وكفاك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصى الله فيك » (١) واعلم أنك لا تسلم من أَلْسِنَةِ الناس فليكن ما يروه منك ويسمعوه عنك محمدة ،فلتكن سيرتك أحسن حديث يذكر وينشر يكن سعيك فى الناس مشكورا وأجرك عند الله مذخورا ، وصدق على بن جبلة حين قال :

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويديهم داء الفساد إذا فسد

يفطم فى الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

وتصفح فى ليلك ما صدر من أفعال نهارك،فإن الليل أخطر للخاطر ، وأجمع للفكر،فإن وجدت خيرا فاحمد الله وواصل ، وإن وجدت شرا فاستدركه بفعل الخير والتوبة ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وتصفح أحوال غيرك فما أعجبك منها فزين نفسك بالعمل بها فإن السعيد من تصفح أحوال غيره فاقتدى بأحسنها ، وانتهى عن سيئها ، والسعيد من وُعظَ بغيره ، ومن لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ وصدق الشاعر حين قال :

إن السعيد له من غيره عظة وفى التجارب تحكيم ومعتبر

وقال آخر :

إذا اعجبتك خصال امرئ فكنه يكن منك ما يعْجُبُكْ

فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجَب يَحْجُبُكْ

(١) الكلام لجعفر بن محمد .

واعلم أنه « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه فإذا فعل ذلك لم يصلح عيبا إلا وجد فى نفسه عيبا آخر ينبغى له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره . وإنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئا من الخير وإن صغر ، فإنك إذا رأيته سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئا من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيته ساءك مكانه . . . ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه » (١) .

« وإذا هممت بأمر ففكر فى عاقبته فإن كان رشدا فأمضه ، وإن كان غيا فانته عنه » (٢) .

وإن أطعت النفس مال بها الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

وإن خفت من أمر فواتا فَوَكِّله ... سواك وعن دار الأذى فتحول

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فى صالح الأخلاق نفسك فاجعل (٣)

* * *

وإن طالبتك النفس يوما بشهوة ... وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنما ... هواك عدو والخلاف صديق (٤)

* * *

ومن البلايا للبلاء علامة ... ألا يرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس فى شهواتها ... والحر يشبع تارة ويجوع (٥)

واعلم أن لكل وقت من أيام عمرك خلقا ، وفى كل وقت من أوقات دهرك عملا ، فتخلق بأخلاق المرحلة التى أنت فيها ، واعمل عملا يناسب أحوال الطور الذى أنت فيه .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ .

(٢) حديث نبوى ، أدب الدنيا والدين ص٢٦٩ .

(٣) الأبيات للشاعر : منقر بن فروة المنقرى .

(٤) الأبيات لابن دريد .

(٥) البيتين لعبد الله بن المبارك .

« وكن مقبلا على شأنك، راضيا عن زمانك، سلما لأهل دهرك، ولا تباعدهم بالعزة فينفروا منك ، ولا تجاهرهم بالمخالفة فيعادوك ويمقتوك، واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ،ولا تخدعها بإخفاء عيبك وإظهار عذرك ، وأصلح نفسك ترغم أنف أعاديك ، وتبلغ كنه أمانيك » (١) ولا يلهينك الناس عن نفسك فإن الأمر خالص إليك دونهم ولا تكن كالذى قال عنه الشاعر :

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه ولو بان عيب من أخيه لأبصرا

ولو كان ذا الإنسانُ يبصر نفسه لأمسك عن عيب الصديق وقصَّرا

ولا تبرم أمرا، وتعزم عزما إلا بمشورة ذى الرأى الناصح، ومطالعة ذى العقل الراجح ، فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه محمدا ﷺ مع ما تكفل به من إرشاده ووعد به من تأييده، فقال جل شأنه : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] تألفا لقلوبهم وتطييبا لأنفسهم ، لِمَا علم سبحانه فى المشاورة من الفضل ، وكيف لا وهى حصن من الندامة ، وأمان من الملامة ، وما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار، ومن أعجب برأيه ولم يشاور عميت عليه المراشد ، ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيدا لأنه لم يضف إلى رأيه رأى العقلاء ، ولم يجمع إلى عقله عقول الحكماء ، فاستغنى برأيه ، والرأى الفرد ربما زل ، والعقل المفرد ربما ضل، ومن استعان بذوى العقول فاز بدرك المأمول، ولم يعدم عن الصواب مادحا ، وعند الخطأ عاذرا .

إلا أن ذوى العقول معادن فعليك بصاحب العقل الكامل، والدين والتقوى ، فمن غلب عليه الدين كان مأمون السريرة ، مُوفق العزيمة ، صادق الفكرة ، خالص الرأى ، سليم الفكر من هم قاطع ، وغم شاغل إلا أن يشاء الله تعالى فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ، ولا يستقيم له خاطر ، وقد روى أن النبى ﷺ قال : « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس ، وما استغنى مستبدٌ برأيه ، وما هلك أحد عن مشورة ، وإذا أراد الله بعبد هلكة كان

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٧٠ .

أول ما يهلكه رأيه » (١) ورحم الله الشاعر الذى قال :

خليلى ليس الرأى فى صدر واحد أشيرا على بالذى تريان

فافزع دائما إلى استشارة العلماء وإلى رأى العقلاء ، ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستكنف من الاستمداد ،فلأن تسأل فتسلم خير من أن تستبد فتندم ، ولا تكتفِ بالرأى الواحد ، وعليك برأى الجماعة فإنه لا يبقى مع اجتماع القرائح خلل إلا ظهر ، ولا زلل إلا بان ، والخطأ من الجماعة بعيدٌ جدا .

ولا تردد على ناصح نصحه ، ولا تلمه فتجعل الشيطان عليه نصيرا ، وكن كما قال الشاعر :

النصح أرخص ما باع الرجالُ فلا تردد على ناصح نصحا ولا تَلُمِ

إن النصائح لا تخفى مناهجها على الرجال ذوى الألباب والفَهَمِ

وكما قال آخر :

وأجب أخاك إذا استجابك ناصحا وعلى أخيك نصيحة لا تردد

كتم السر :

وكن كتوما لسرك - بعد استشارة الأمناء - يكن الخيار لك ، فإن أفشيته كان الخيار عليك ، فكم من إفشاء السر أراق دم صاحبه ،ومع مِنْ نَيْلِ مطالبه أو باء بالخيانة قد كان مؤتَمَنا ، واتَّهِم بالنميمة بعد أن كان مُسْتَوْدَعا واعلم أن المرء لا يظهر سره إلا إذا ضاق به صدرُه ، وقل عليه صبرُه قال الشاعر :

إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيرَه فهو أحمق

إذا ضاق صدره عن سر نفسه فصدر الذى يُسْتَوْدَع السرَّ أضيق

أى إذا افشيت سرك لأحد فلا تلمه على إفشائه وقد ضاق به صدرك ولم يقدر عليه صبرك وإذا كان من الأسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق وفى ، أو استشارة ناصح مُسالم فاختر لسِرك أمينا عليه ، وليس كل من كان على الأموال أمينا يكون على الأسرار مؤتمنا فاحذر - تولى الله رشدك - كثرة المستودعين لسرك

(١) أدب الدنيا والدين ص٢٣٤ .

فإن كثرتهم سبب إذاعته وإظهاره ، وصدق القائل حين قال :

فلا تنطق بسرك كل خِلّ إذا ما جاوز اثنين فاشِى

وأحسن عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين قال: القلوب أوعية الأسرار ، والشفاه أقفالها ،والألسن مفاتيحها،فليحفظ كل امرئ مفتاح سره . فإذا حفظت أسرارك بكتمها فى نفسك فاعلم أن للنفس حالتين :

حالةُ استراحة إن حرمت إياها كَلَّتْ

وحالةُ عَمَلٍ إن أرَحْتَهَا فيها تخلَّتْ

فأولى بك أن تعطى لكل ذى حق حقه،فتنظم وقتك،فإن للحالتين قدرا محدودا،وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة أحدهما وتغيير زمانهما . فنوم الصباح عجز وكسل ، ونمو العشى حماقة وجنون ، ونوم القيلولة دأب الصالحين والصديقين ، فإذا أعطيت للنفس حقها من النوم والدعة والعمل واليقظة تمتعت بالاستراحة من عجزها وملها، وسلمت بالحركة من بلادتها وفسادها وخير الأمور أوساطها . وحكى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما دخل على أبيه فوجده نائماً فقال : يا أبت أتنام والناس بالباب ؟ فقال ، يا بنى نفسى مطيتى ، وأكره أن أتُعبها فلا تقوم بى [١] .

آداب جامعة [٢] :

ونختم هذا الباب بهاته الآداب الجامعة لأهميتها فى حياة الإنسان :

إذا دخلت مجلسا أو جماعة فسلم،واجلسْ حيث المتسع ، واترك التخطى ، وخُصَّ بالسلام من قربت منه إذا جلست،واذا بُليت بمجالسة العامة فاترك الخوض معهم،ولا تصغ إلى أراجيفهم ،وتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم ، وأقل اللقاء لهم إلا عند الحاجة،ولا تستصغر أحدا من الناس فتهلك فلا تدرى لعله خير منك ، وأطوع لله منك ، يقول الإمام محمد الباقر لابنه جعفر الصادق : « يا بنى إن الله خبأ ثلاثة أشياء فى ثلاثة أشياء : رضاه فى طاعته فلا تحقرن من

(١) أدب الدنيا والدين ص٢٦٤ .

(٢) انظر: المنقذ من الضلال .

الطاعة شيئا فلعل رضاه فيه ، وخبأ سخطه فى معصيته فلا تحقرن من الذنب شيئا فلعل سخطه فيه ، وخبأ أولياءه فى خلقه فلا تحقرن أحدا فلعله ذلك » (١) .

ولا تنظر إلى أهل الدنيا بعين التعظيم فى دنياهم لأن الدنيا صغيرة عند الله صغيرة ما فيها،ولا تعظم قدر الدنيا فى نفسك فتعظم أهلها لأجلها فتسقط من عين ربك ، ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر فى أعينهم ، ولا تعاديهم فتظهر لهم العداوة،ولا تطيق ذلك ولا تصبر عليه إلا أن تكون معاداة فى الله عز وجل ، فعاد أفعالهم القبيحة وانظر إليهم بعين الشفقة والرحمة ، ولا تطمع أن يكونوا لك فى الغيب كما هم لك فى العلانية فإنك لا تجد ذلك أبدا ، ولا تطمع فيما فى أيديهم فتذل لهم ويذهب دينك معهم، ولا تتكبر عليهم. وإذا سألت أحدا منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد ، وإن لم يقضها فلا تذمه فتكسب عداوته ، ولا تعظ أحدا منهم إلا أن ترى فيه أثر القبول وإلا عاداك ولم يسمع منك . وإذا رأيت منهم خيرا أو كرامة أو ثناء فلترجع بذلك إلى الله عز وجل وتحمده وتسأله ألا يكلك إليهم ، وإذا رأيت منهم شرا أو كلاما قبيحا أو غيبة أو شيئا تكرهه فكل الأمر إلى الله تعالى واستعذ به من شرهم ،واستعنه عليهم ، ولاتعاتبهم فإنك لا تجد عندهم للعتاب موضعا،ويصيرون لك أعداء،ولا تشف غيظك بل تب إلى الله تعالى من الذنب الذى به سلطهم عليك واستغفر الله منه،وكن سميعا لحقهم ، أصم عن باطلهم وإلا فَارقْهُم عملا بقوله تعالى : ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام :٦٨] .

والقَ صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم،وتوقر من غير كبر،وكن فى جميع أمورك فى أوساطها ، ولا تنظر فى عطفيك ، ولا تكثر الالتفات،ولا تقف على الجماعات،وإذا جلست فترفع عن تشبيك أصابعك واحذر من العبث بخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال يدك فى أنفك وطرد الذباب عن وجهك وكثرة التمطى والتثاؤب،وليكن مجلسك هادئا، وكلامك مقسوما (٢) واصغ

(١) نور الأبصار ص ٢٩٨ .

(٢) مقسوما : واضح الملامح المعانى والبيان .

إلى الكلام الحسن ممن يحدثك من غير إظهار العجب منك ولا المسكنة،وغض من المضاحك والحكايات،ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا زوجتك،ولا تتصنع كما تتصنع المرأة ،ولا تتبذل [1] كما يتبذل العبد ، وكن معتدلا فى جميع أمورك ، وتوق كثرة الكحل والإسراف فى الدهن،ولا تكثر من الحكايات،وأجب أهلك وولدك من غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف وإذا خاصمت فتوقر،وتفكر فى حجتك،ولا تكثر الإشارة بيدك،ولا تجثو على ركبتك،وإذا هدأ غضبك فتكلم، وإن بليت بصحبة السلطان فكن منه على حذر، ولا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبى، وكلمه بما يشاء ، وإياك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه ولو كان مستمعا لذلك. وإياك وصديق العافية فإنه أحد الأعداء لك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك، وإياك وكثرة البصاق بين الناس فإن صاحبه ينسب إلى التأنيث، ولا تظهر لصديقك ما يؤذيك فإنه متى رأى منك وقعة أعقبك العداوة ولا تمازح لبيبا فيضحك عليك، ولا سفيها فيجترئ عليك، ولا حسودا فينتقم منك، لأن المزاح يخرق الهيبة، ويسقط المنزلة، ويذهب ماء الوجه، ويعقب الحزن ويزيل حلاوة الود، ويميت القلب ويعقب الذم، ويجرئ السفيه، ويهين فقه الفقيه،ويفسح العزم،ويظلم السرائر ويميت الخواطر،ويكثر الذنوب ويبين العيوب.

فأسأل الله تعالى أن يهدينا فيمن هدى، ويعافينا فيمن عافى، ويتولانا فيمن تولى، ويبارك لنا فيما أعطى، وأن يقينا شر ما قضى، فإنه لا راد لما قضى ، نستغفره ونتوب إليه .

واعلم أن الانسان إما أن يكون وحده أو مع غيره ، وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم المخالطة،وكل مخالط ففى مخالطته أدب والأدب على قدر حقه وعلى قدر رابطته التى بها وقعت المخالطة . والرابطة إما القرابة وهى أخصها أو أخوة الاسلام وهى أعمها ،وينطوى فى معنى الصداقة والصحبة ، وإما الجوار وإما صحبة السفر والمكتب والدرس وإما الصداقة والأخوة .

---

(١) لا تتبذل : لا تتذلل .

ولكل واحد من هذه الراوبط درجات ، فالقرابة لها حق ، ولكن حق الرحم المحرم آكد ، وللمحرم حق ولكن حق الوالدين آكد ، وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن الصديق فى دار الغربة يجرى مجرى القريب فى الوطن الأم باختصاصه بحق الجوار فى البلد ، وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة ، وللمعارف درجات فليس حق الذى عرف بالمشاهدة كحق الذى عرف بالسماع بل آكد منه ، والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط. وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها فحق الصحبة فى الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر، وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة ، فإن ازدادت صارت محبة ، فإن ازدادت صارت خلة [١] .

(١) انظر : المستخلص فى تزكية الأنفس ص٥٠٢ .